MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 1-4-93
Photo No. : 34

... ويبقى فنّان البقاء

يصعب على من عايش من قرب تجربة فرنسوا ميتران في الحكم ان يكون حياديا حيال هذا الرجل. بل يصعب ايضا الاكتفاء بموقف التأييد او المعارضة عندما يحين وقت التقويم. فشخصيته لا تحتمل النظرات التبسيطية. انجازاته عديدة، ان على الصعيد الشخصي او على المستوى السياسي. تقابلها سقطات لا تقل اهمية. فهو، في النهاية، رجل دولة مخضرم تمتد حياته السياسية على خمسة عقود، يستحيل تاليا اختصارها ببضعة اسطر. انه "الحيوان السياسي" في اعقد تجلياته، يتعامل مع السياسة وكأنها فن البقاء، ويجبر المراقب على الانحراف عن التحليل لتذوق تلاوين هذا الفن حينا والنفور من تغليب تقنيات الحكم (او المعارضة) على المشروع العقيدي حينا آخر.

ان يكون ميتران دخل التاريخ امر مسلّم به، ولا يجادل فيه احد. السؤال هو عن الهيئة التي يدخل بها تاريخ فرنسا: اول رئيس يتم انتخابه مرتين بالاقتراع الشعبي؟ اول رئيس يخطر الى تجربة "المساكنة" مع حكومة من لون مختلف ما لبث ان انتصر عليها امام الرأي العام؟ اول رئيس يبقى في السلطة بالوسائل الديموقراطية اكثر من ١٢ عاما (هذا اذا استمر في الحكم حتى ٢١ ايار المقبل، ذكرى توليه الحكم)؟ ام ان الافضل تعريفه بالجديد الذي اتى به في السياسة الفرنسية: اول رئيس يدخل الشيوعيين الى السلطة في اوروبا منذ اندلاع الحرب الباردة؟ بأني الحزب الاشتراكي الجديد؟ ام مدمره؟ قائد انعطاف الاشتراكية الفرنسية الى الوسط، حتى لا نقول اليمين؟ ام مبدد تطلعات التغيير التي اتت به الى سدة الرئاسة عام ١٩٨١؟

كلها تساؤلات تفرضها المناسبة الانتخابية الاخيرة في فرنسا، او بالاحرى يفرضها حجم انتصار التآلف اليميني الذي حوّل ميتران، او يكاد، رئيسا معزولا شعبيا وبرلمانيا يلي الاحكام ولا يحكم، وكأنه ملك دستوري، ولكن من دون ان تكون له شرعية الملكية. الا انه قد يكون من المبكر جدا نعي ميتران سياسيا. فهو خبير في فن البقاء، كما اسلفنا، وقد اثبت قدرته في هذا الفن في تجربة "المساكنة" الاولى بين ١٩٨٦ و١٩٨٨. بالطبع تختلف الظروف اليوم. ليس لأن حجم انتصار اليمين اكبر بكثير مما كان عليه عام ١٩٨٦. بل لأن القانون الانتخابي المعمول به في هذه الانتخابات، وبارادة ميتران نفسه، يختلف عن القانون النسبي الذي كان ساري المفعول وقتئذ. ففي حين لم يحصل اليمين الا على غالبية نسبية في التجربة الماضية، يسيطر الآن على اكثر من ثلاثة ارباع الجمعية الوطنية، مؤديا الى تشكل ما يسمى "مجلس غير موجود" une Chambre introuvable بمعنى ان المجلس لا يعود يملك اي نفوذ على الحكومة ليس لسبب الا انها تركن الى غالبية اوتوماتيكية هائلة.

بيد ان ميتران يستطيع بدوره الركون الى حتمية وقوع التآلف اليميني المنتصر في شرك الطموحات الشخصية والتجاذبات السياسية. فهذا التحالف يجمع عددا من الشخصيات الطامحة الى رئاسة الجمهورية والنازعة تاليا الى نصب الافخاخ لبعضها البعض. يأتي في مقدمة هؤلاء المسترئسين جاك شيراك وفاليري جيسكار ديستان. لكن اللائحة تضم ايضا فرانسوا ليوتار وشارل باسكوا وسيمون ڤاي وريمون بار وربما رئيس الوزراء الجديد ادوار بالادور. وقد تزيد من حدة هذه الخلافات الشخصية النتيجة التي حصل عليها الحزب اليميني المتطرف "الجبهة الوطنية" والذي اثبت قدرته على المحافظة على شعبيته على رغم انه اخفق في ايصال اي نائب الى المجلس. وقد تؤدي هذه النتيجة الى الايحاء لبعض المسترئسين بضرورة مخاطبة جمهور هذا الحزب، مما سيتسبب في تسعير الخلافات العقيدية بين مختلف اجنحة التآلف، ولاسيما بين الديموقراطيين المسيحيين وتيار باسكوا. يضاف الى ذلك ان تجربة "المساكنة" الاولى لم تقنع الفرنسيين بجدية الوزراء اليمينيين في متابعة ملفاتهم. وفي هذا المجال، يلاحظ ان الحكومة الجديدة تجمع، الى بعض الشخصيات التي تحظى باحترام كبير مثل سيمون ڤاي، وزراء لم يتميزوا في الاعوام الاخيرة الا بتصرفاتهم الهوجاء. كما ان رئيس الحكومة نفسه، وان يكن يتمتع بسمعة جيدة، يفتقد الالمعية التي يمواها الفرنسيون في زعمائهم. واهم من ذلك كله ان اليمين الفرنسي لم يعد يحمل، شأنه شأن الحزب الاشتراكي نفسه، مشروعا متكاملا، بعد ان تخلى عن النفس الديغولي.

ومؤدى الكلام ان انتصار اليمين المدوي قد يبدو واهيا بعد فترة، وتحديدا بعد عامين، حين سيحين وقت الانتخابات الرئاسية، وان ميتران قد يتمكن تاليا من تحضير الاجواء للمرشح الاشتراكي. هذا اذا كان مهتما بايصال اشتراكي آخر الى الحكم بعده. فهنا تكمن مشكلة ميتران الكبرى: قد لا يكون انتهى سياسيا لكنه انهى حزبه، فصارت مسؤولية اعادة البناء تقع على غيره، وهذا تحديدا ما يكرهه ميتران، في نزعته المزمنة، والعقيمة، الى مخاطبة التاريخ وحده.

سمير قصير